يديه بركاته المكتوبة وأسراره ، وبمثله لسيدنا ومولانا الإمام الأعدل ، الخليفة الصَّالح الأتقى لله عزَّ وجلَّ ، أمير المؤمنين أبُو يَعْقُوب بن أمير المؤمنين [202] بنَصْرٍ تستقبل منه بركاته المَضْمونَة ، وتتمهد بسعده الأسعد حوزته المَصونَة ، وتنهض عزماته في الزلاَّء[1] فما دونه .

أما بعد فإنه لما اختص الله تبرك وتعالى طائفة التوحيد ، بما هم عليه من العَمَل السَّديد ، والسَّبيل الحَميد ، والسَّعي السعيد الرشيد ، اجتمعت نفوسُهم بَعْد توفيق الله تعالى لَهُم ، ومستقبل سعد يدَّخرون فيه عملَهم ، أن يجدّدُوا البيعة المباركة لسيدنا ومولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين جدَّد الله لهم السعود ، وأمدَّ لأمرهم العزيز التأييد الكريم والخُلود ، بالاسم المُبارك العظِيم الذي أولُ مَن نَطقَ له فيه عُمَرُ بنُ الخطاب فأقر ذلك لنفسه لقباً واسماً ، وسمةً لمعنى الخلافة ورسماً ، حين علم تحقيقَ ما به خُوطِب وبه كوتب ، فحمد الله تعالى وشكَره ، واسْتَحسن لمخاطبه بذلك ما سمَّاه به وذكره ، جدَّدنا الآن من بيعة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين أدام الله تأييدَهم على الإسمية المباركة العظيمة الموسومة فرضاً أوجبه الدِّين والإسلام ، وحقّاً اقتضاه شرعُ محمَّد نبيِّنا عليه السلام ، واتباعاً لِمَا فعله أصحابه البَرَرة الخيار الأعلام الصحابَة العَشَرة ، فبايعْنا سيدنا ومولانا على السَّمْع والطاعة ، ومنهج الجماعة ، بيعة إيمان وأمانة ، وعَدْل وعبادة ، تبركاً بأمرهم [203] واستنجاداً بالله تعالى على ما يجب فيها من طاعتهم ونصرهم ، اقتداء فيها ببيعة الشَّجرة ، وبأصحاب رَسُول الله المؤمنين البَررة ، التزمناه في كلّ الأحوال ، وأخلصْنا لها الضَّمائر في كافة الأعمال ، واعتقدناها شرعةً وديناً ، وبادرنا إليها حقيقة ويقيناً ، فهي ذخيرتنا في المعاد ، وزادنا الى يوم التناد ، وسعادتُنا ونجاتُنا يوم الوَعيد والإيعاد، عَلَينا بالوفَاء بعُهُودها ، وكمال شُروطها

(1) لم نتمكن من التأكد من هذه الكلمة ولا من معناها فقد تقرأ «الزلاء»، لكنها في أقرب الاحتمالات البزلاء بمعنى الداهية العظيمة.

وعُقودها ، عهد الله الأصَح ، وعقدُه الأنصح ، وذمَّته التي لا تَضِيع ودايعُها ، ولا تبخس بضائعُها ، متمسِّكين فيها بحَبْل الله الوثيق ، وأمْره الحَقِيق ، سالكين في التزامها ، وابرامها وتمامها ، ما يَجِب من شُروطها ، وصحة ربوطها ، عَارفين بِمَا فيها من مُبْهَمِها ومَبْسُوطها ، والله تعالى يُعينُنا على أداء واجباتها ومفرُوضَاتها بفَضل الله تعالى وعلى مضمن معناها ، والتزام مبناها ، التزم الطَّلبة والشيُوخ والكافَّة من الموحدين بقصبة أغرناطة ومدينتِهَا وكتبوا على ذلك بشَهاداتهم وخطُوط أيديهم على أنفسهم ، وذلك في النّصف من جُمادى الآخرة من عام ثلاثة وستين وخمس مائة .

وهذه نسخةُ الرِّسالة الَّتي وجَّهها [204] الشيخُ الأجلُّ أبو عبد الله مع البيعة السعيدة :

بِسْم الله الرحمن الرحيم صلَّى الله على محمد وعلى آله وسلم ، الحضْرة السامية الإمامية حضرة سيِّدنا ومَوْلانا الإمام الأعْدل ، الخليفة الصَّالح المنصور بالله عزَّ وجل ، أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدَّهم بمعونته ، من ملتزم أوامرهم العلية ، المتبرك بمَعَالِيهم السَّنية ، الطالع السامع فيما يجب عليه من حقهم في كل ثنية ، محمد بن أبي إبراهيم : سلامٌ على حضرة سيدنا ومَوْلانا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبَعْد حمد الله على إعلاء هذا الأمر العزيز المكين ، وإجراء سره القائم على أفضل الأساليب والقوانين ، وإمضاء آراء أهله الموحدين في صوْب الإسعاد والتَّيمين ، والصلاة على محمَّد رسوله ونبيّه الصفي الأمين ، المبلغ الرسالة على أكمل حالات البيان والتَّبيين، والرّضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم لإقامة الحق في المفروض والمسنون ، ولصاحبه وخليفته أمير المؤمنين المؤيد لإظهار أسراره وأنواره بأتم التأييد المَضْمُون ، وللإمام الأعدل ، الخليفة الصَّالح المنصور بفضل الله عزَّ وجل ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبو يعقوب بن أمير المؤمنين بنصر يختصُّه في كافة الأحوال والشؤون . فكتبه خديمكم من أغرناطة حرسها الله عن

[205] التزام أمركم الكريم ، والاعتلاق بحبلكم الذي هو حبل الله العظيم ، شاكراً لله تعالى وحامداً على ما أمضى به من أمره الى سيدنا أمير المؤمنين بخلافته ، واختصه في أرضه بفضل إمامته وحمل أمانته وحَباه بكرامته ، حين علم فيه الاستبداد بكفايته . فلله قِبل عبْدِكم في ذلك نعمٌ متظاهرة ، وآلاء مترادفة متكاثرة ، أرغب من الله تعالى أن يُلهمني حمدَها وشكرها ، وأعمالها ونشرها ، بعزَّته ، وأنه وصلني كتاب السيد الأسنى أبي إبراهيم بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه ومعه نسخة الكتاب المبارك العزيز المُبْدي من البشائر ما أربى على التكميل والتتميم مما كان فيه إجماع الرأي السعيد ، والفعل السديد ، الذي اجتمعت[1] ، اراء الموحدين ، وكانوا من الله تعالى في ذلك على توفيق مبين ، من تجديد البيعة الكريمة والأسمية المباركة الموسومة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، أدام الله لهم السعد والتمكين ، والفتح المبين ، إلى ما اعلموا فيه مما أسبل الله أثرها على الموحدين وطائفة المؤمنين من توالي الفتوح ، واتصال الخير الممنوح وترادف الأمطار ، ورخص الأسعار ، مما يقل لذلك شكر الشاكر ، ووصف الواصف وذكر الذاكر ، وعند وصول الكتاب الكريم الى الخديم الطالع عليه بعجائب الفتوح والسرور ، بادَرْنا الى التيمن [206] بعقد البيعة الرضوانية التي هِيَ كَمالُ ديننا وذُخرُ معادِنا ، فعقدناها على ما يجب من مفروض البيعة لأمير المؤمنين ، على ألزَم شروطها في الدّين ، وحمدنا الله تعالى على التزامها ، ودعونا الله في التوفيق بالعمل على نظامِها ، إنه القادرُ على ذَلِك لا إله سواه . وفي حين ذلك وَصَلنا أيضاً على الخُصُوص كتابهُم الكريمُ الثاني ، المتمّم لتلكَ المَباني ، ممّا كانَ من أمرهم الحفيل ، ونَظَرهم لهذه الجزيرة حماها الله على أتمّ الرأي الجَميل ، بوُصُول العَساكِر المنصورة والأجناد الموفورة اليها وحمايتها ، إلى ما خَصَّصُوا به عبيدهم أدام الله أمرهم ، وأعز نصرهم ، من الأمر المفصل بالبركة التي ما زالت بركاتهم ونعمهم عَلَينا تترادف ، وتتوالى قبْلنا وتتعارف ،

(1) سقطت كلمة (عليه) هنا فيما يظهر.

مَعَ ما عُرفوا به من الخَيْر الذي يصلح بلادَهم ، ويخصُّ أجنادَهم ، والله تعالى نسأله أن يُعين الكلَّ من عَبيدهم على أداء شُكْرهم ، والتزام أمرهم ، بعزَّته وقدرته . والسَّلام الأجزل الأحفل ، الأتمُّ الأعمُّ، على الحضرة السامِية ، الإمامية العَلية ، ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه . كُتِب في النّصف من جمادَي الأخيرة عام ثلاثة وستّين وخمس مائة .

جواب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين على هذه الرسالة الى الشيخ [207] الأجل ابي عبد الله بن أبي إبراهيم وذكر وصول البيعة اليه .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمدَّهُ بمعونته الى الطَّلبة الذين باغرناطة أكرمهم الله بتقواه ، سلام عليكم ورحْمة الله تعالى وبركاتُه أما بعد فإنا نحمُد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو ، ونشكره على آلائه ونعمِه ، ونصلّي على محمَّد نبيّه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأمْر الله والدّاعي الىَ سَبيله ، ونُوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ، ممْشِي أمره العزيز الى غاية تتميمه وتكْميله . فإنا كتبناه اليكم أكرمكم الله بتقواه من حَضْرة مراكش حَرَسَها الله . والَّذي نُوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته ، والاسْتعَانة به والتوكل عَلَيه . وقَدْ وصلنَا كتابُكم من عند الشيوخ من غرناطة حَرَسها الله والموحِّدين وفق الله جميعهم ووفقنا عَلَيْه ، ورأينَا ما تحمَّلوهُ عَن المُوحِّدين باغرناطة وجيرانِهم من انعقاد إجْماعهم عَلَى ما أجمع عليه شيوخُ أهْل التَّوحيد وأعيانِهم ، من الأمرِ الَّذي أوْجَبُوا على أنفُسِهم المُبايعةَ عَلَيه ، وإعطاء صفقة اليَد فيه ، وقد وفقَّهم الله لمَا وفق إليه أهل أمْره وذَوي العصمة من طائفتِه ، والله تَعالى يتقبَّل مِنْهُم [208] عَمَلَهُم ، ويعرِّفهم بركةَ ما التزمُوه ، ويُعينهُم على القيَام بواجبه والوَفاء بحقِّه ، وقَد انْصَرف هؤلاء الأشياخ المذكورون ،

بعد إقامَتِهم بهذِه الحَضْرة ونيلهم بركاتها، بِمَا يَجِدُون أثَرَه في أحْوَالهم، وسريان الانتِفاع بِهِ في أقْوالِهم وأعمالهم، فاعْرِفُوا لهم حقَّ وفادتِهم، ومكان زيادتهم، واحملُوهم وكافّة جيرانِهم على الرِّعاية المتصلة، والمبرَّة الحافِلة المُشتَمِلة إن شاء الله تعالى. والله ولي عونكم وصونكم لا ربَّ غيره والسلام الكريم العميمُ عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الثاني عشر من شوال عام ثلاثة وستين وخمس مائة.

العفو والإنعام من أمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه بعد كمال هذه البيعة السعيدة على المسجونين في حقه وماله، وتسريحهم بأفضاله.

لما كملت على ما ذكرته من الإجماع عليها من الموحدين، وسرت البشائر بها في البلاد وتيمّن بارتباطها بالعدوة والأندلس جميعُ العباد، عفا عن المسْجُونين وحط البقايا عن العمال الخاينين[1]، وأمنَّهم من المخاوف فيما تقيد عليهم في الدَّواوين فزاد الانبساط، والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدْله، وزادتِ المَخَازِنُ إثر ذلك وفُوراً، ونمت الأرزاق، وعمرت [209] الأسواق، بالبَيع والتجارة الرابحة ودرَّت على النّاس الخَيْرات دروراً، واغتبط العالم به وببيعته، وكثُرُ المال في ايدي مِنْ توالي سَمْحِه وبركته، وابتَنَوْا بمراكش الدّيار العتِيقة، واغترسوا خارجها اينَع حَدِيقة[2] وامّنوا في كل طريقة، واتّصل فضْلُه عَلَى مَن ذكرتُه في جميع العدْوة والأندلُس، واشتمل الحبُّ له في جَميع القُلوب والأنفس، كقول أبي تمام:

وَلَقَدْ أراكِ فَهَلْ أراكِ بِغْبطَةً وَالعَيْشُ غضٌ والزَّمانُ غُلامَ[3]

(1) ابن عذاري: الخايفين، وسقطت في المخطوط نقطة الخاء، انظر ص 60 من البيان المغرب.

(2) ظلت مراكش محلّ عناية من الموحدين ولهذا ففي الوقت الذي كانوا يجهزون فيه على آثار المرابطين بها كانوا يعوّضون ذلك بالبحيرات والبساتين والمباني. انظر التعليق رقم 2 ص 214 ورقم 1 ص 253.

(3) من قصيدة لأبي تمام يمدح المأمون، مطلعها:

دِمَنٌ أَلَمَّ بها فقال سَلاَمُ كَمْ حَلَّ عقدةَ صَبْره الالمام

أعوامُ وَصْلٍ كانَ يُنْسِي طُولَهَا ذِكْرُ الهَوَى فكأنَّهَا أيامُ!

وأما مَن كان عليه دَينٌ من المسجُونين للغَيْر، أو حق مسلم في قصاص أو ضُر، فتركه لصاحِبه على مَهْيَع الشرع وواجِبه، فشكر الله والناس عدله وفضله. وقال أبو عمر بن حربون أيضاً يمدحه حين دُعِي بأمير المؤمنين، وصحّت الإسمية له من الموحدين (كامل)[1]

جاءتْك تسْحَبُ ذيْلَهَا للموعِدِ زهراءَ طالعةً بسَعْدِ الأسْعَدِ
فاصدَعْ أميرَ المُؤمنين بدَعْوةٍ لم تَتْرِكْ صَمماً بسَمْع الجَلْمَد
يهني الخلافةَ أن لبستَ رداءها وقعدْتَ منها اليَوْمَ أشْرَفَ مَقعَدِ
ومن ارتقى في سُلَّم التَّقْوَى رَأى زُهْر الكَوَاكِب بالحَضِيض الأوْهَدِ
[210] ألقَتْ أزِمَّتَها إلى مَنْ هَمُّه في مُرهَفٍ أو مُصْحَفٍ أو مَسْجِد!
علقَتْه مَيْمُون النَّقِيةِ[2] زاهِداً لَمْ يَشْتغِل بدَدٍ ولا هُو مِن دَدِ!
أنظر اليه فإنَّ رؤيةَ وجْهِهِ تجْلُوا الصَّدى عَنْ قلب كلّ موحِّد
ما نام[3] قيام السَّموات العُلَى عَنْ شأن قوّامٍ له متهجِّد
الحقُّ حقُّكَ ما لَهُ مِنْ دَافِعٍ واسْتَشْهِد البيض الصَّوارمَ تَشْهَد
لقد اضْطَلعتَ بحَمْلِ أعبْاء الَّتي حَدت الأنامَ على الطريق الأرْشَد
إنَّ الذِي قَدْ قمتَ تَنْصُرُ دِينَهُ أعْطاكَ ميراثَ النَّبي مُحَمَّد!
لم تُصْبِك الدُّنيا غَدَاة تبرَّجَتْ وغَطتْ بسالفةِ الغَزال[4] الأغْيَدَ
لله مشْهَدُ بَيعْةٍ بويعتَهَا فالدِّينُ والدُّنيا بذاك المَشْهَد
في حَيْثُ تَرْتَدُّ العُيُونُ مهابةً عن سَاطِعٍ من نُورِكَ المتوقِّدِ
لا تثبُتُ الأبْصَار فيكَ لِمُلْتَقَى لألاءِ أنْوَار الهُدَى والسُّؤدَدِ
وكأنَّهم إذ بَايَعُوك تَمَسَّحُوا بالقِبْلَةِ البَيْضاء ذَاتِ الأسْوَدِ[5]

(1) اختار ابن عذاري من هذه القصيدة سبعة وعشرين بيتاً.. ص 61 - 62.

(2) في ابن عذاري ص 61: النقيبة عوض النقية وهو أدل على المراد.

(3) المصدر السابق ص 61: فاقام قيام....

(4) سقط حرف الألف من المخطوط ويظهر أنه عثرة قلم...

(5) يعني الحجر الأسود...

وكأنّما وقفوا بحيث تَروُعُهم | رَجَفاتُ ملتطِم الغَوارب مُزبِد
وكأنّما وَلجُوا وليجةَ ضَيْغَمٍ | قَانِي السَّواعِدِ بالنَّجيعِ مُوَرَّد
هَابُوا، فلولا زحمةٌ أدْنَتْهُمُ | لم يَسْتطِيعُوا لَثْم هاتيك اليَدِ!
لتَدَارؤا أمّ العطاء كأنّهم | عُصَب الظَّماء تزاحمت بالمَورِدِ
إن وَقَّفُوا فلرهبةٍ وسَكِينَةٍ | أو أوْجَعُوا فلرغبةٍ وتَوَدُّدِ
أليوم نامَ الدينُ ملءَ جُفُونهِ | عن حَزْم يقظانِ الجُفُون مُسَهَّدِ
وقّادِ الحاظِ العَزِيمة صارم | والشَّمسُ ناظرةٌ بعَيْن الأرمَدِ
[211] ألِفَ الخَوانِقَ والقَنا فكأنَّهُ | بَيْنَ الأزاهِرِ والغُصُون المُيَّدِ
وإذا احْتَبَى ابصَرت رُكْن يلملم[1] | يعتمّ طوراً بالغمام ويرتَدي
بَطَشتْ يَدَاه بالأعادي بَطْشَةً | خضعَتْ لَهَا عُنُقُ الزَّمانِ الأصْيَدِ
إنّ الشَّريعة أُيِّدتْ أركانُها | بمُوفَّقٍ للصَّالِحاتِ مُؤَيَّدِ
يَجْلُو خفياتِ الأمُورِ بِفِطْنَةٍ | قَدْ أنبأَتْه اليَوْمَ عمّا في الغد
عَمِرَت قُلُوبُ المُؤمِنين بحُبِّه | واستَمْسَكُوا بعُرى المَتِين المُحْصَد
فاسلَمْ أميرَ المؤمنينَ لأمَّةٍ | مَا شِرْبُهَا[2] إذْ سُستها بمُصرَّد!
أمَّنتَها أهوال كلِّ مَخُوفَةٍ | شَرَّدْن شربَ الأمْنِ كلَّ مُشَرَّد[3]
لَوْلا مقامُك زُلزِلَت زِلزالَها | وتَضَعْضَعَتْ شمُّ[4] الهضاب الصُّخَّد
لَوْلا الذي بَسَط الإلاهُ بفضلِهِ | في الأرض مِن سُلطانِكم لم يُعْبد[5]
حطّ الأنامُ الى ذراك وأصبحوا | من ظِلِّ عَدْلِكَ في النَّعيم الأبْرد
للحِلم فيكَ وللأناةِ مُجَمَّعٌ | لمحبَّةِ المعبُودِ والمتعبِّدِ

(1) يلملم: موضع على مرحلتين من مكة وهو ميقات أهل اليمن وقال المرزوقي: هو جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث.
(2) ابن عذاري ص 61: (ما سرتها) وهو خطأ دون شك من الناسخ.
(3) يقصد فيما يلوح أن العدالة والصرامة المنتشرتين في البلاد جعلتا الأمن يشمل سائر البقاع.
(4) سقطت نقط الشين من المخطوط وفي ابن عذاري (لهم) عوض شم، انظر ص 61.
(5) ابن عذاري 62 (سلطانهم لم يعتمد) ولا يخفى ما فيه.

صبَتِ النُّفُوسُ إلَيْكَ حَتَّى أنَّهَا | لو سُمْتَهَا الأعْمَار لم تَتَردَّدِ
غَارَت معطَّرة الثَّناء وأنْجَدَت | فرمَت إلَيْكَ بمُتْهِمٍ وبمُنجِدِ[1]
فأهنأ برضوانية[2] ميمُونةٍ | رمَتِ الأعادي بالمُقيم المُقْعِد
فَهْي المعدَّةُ للمعَادِ رَبيبُه | وهيَ العتادُ لحَسْم داء المعتدي
واليكَها تَبْغي رضاكَ ذَخيرةً | سَنَداً ألُوذُ بِهِ طَوال المُسْنَد
لم تَنْتهِجْ سَنَنَ المَديح، وإنَّما | قامَتْ بفَرْضٍ في عُلاَك مؤكّدِ
أخذتْ بأطراف الثَّناء ولم تُطِقْ | إحصاءَ أوصاف الجَمِيع المفرَد
[212] أنْباءُ فَضْلك لا يُقام بحقِّها | ولَوَ انَّها كتبتْ بذَوْبِ العَسْجَد!

وصنع الصنّاع لأمير المؤمنين، أدام الله تأييدهم، سنان رمح بسنانين اثنين، متصلين في سعة السيف، كلُّ واحد منهما، فأعجب بذلك وأمر بالقول في وصْفِه فقال أبو عمر بن حربون يصفه: (كامل)

طَبَعَ الإمام من الأسنَّة لَهْذَماً | لم يعهدوه في أسنَّة مَعْضَب
رمحٌ تمثَّل للأعادي شَكْلُه | رَأسي شُجَاعٍ أو زَبانا[3] عَقْرَب
إن هزَّت الهيجاءُ رَوْقي ذابلٍ | يَوماً تلقَّاه العدوُّ بأعْضَبِ
مَاذانِ إلا ناظرانِ تَشَوَّفَا | نحوَ الجِهادِ تشوُّف المُتوثِّب
أو مَسْمَعان تَحسَّسا من نبأةٍ | أوْفَى لها سَعْدُ السُّعود بمَرقَب
أو كَوكَبان قَضَى على لُقْيَاهُما | بالسَّعْد من هو كافرٌ بالكوكب
فَدَعوا القُرانَ[4] فإنَّه متأثِّرٌ | عن سِرِّ هَذا النيِّر المتشعِّب

(1) ابن عذاري 62: أهلاً وسهلاً بالمغير المنجد.
(2) البيت غير موزون كما يلاحظ.
(3) كذا في المخطوط برسم الألف عوض الياء: زباني، وزباني العقرب: ما تضرب به من طرف ذنبها.
(4) كذا في المخطوط ولم نتبين المعنى عليه، سيما مع ضبط القاف بالضم ويظهر أنه مِنَ المكسور القاف، وهو عند المنجمين: اجتماع كوكبين سيّارَيْن في نقطةٍ واحدة من فلك البروج، وقد ورد في شعر لأبي القاسم الرحوي:
عرفت زماني حين انكرت عرفاني | وأيْقَنْتَ أن لا حقَّ في كف كِيوَان
.. وأنْ لا اختيارَ مُقَوَّمٍ | وأنْ لا قِراعَ بالقِرَان لأقْرَاني =

هَـا إنَّهـا بعْضُ العَـلامَـات الَّتي ... قـد أطْلَعُـوا أنـوارَهـا بـالمَغْـرِبِ
نَبَـأٌ عـظِيم في الـوَرَى وإثـارةٌ ... من عِلمَ مَن جَاءت بـه بُشْرى النَّبِي
هُـوَ ذَاكَ بعْض مفـاتِـحِ الـمَلَكُـو ... ت في كف تَنُوب عن الغَمَام الصيِّب
للملكِ فيـهِ سَـريـرةٌ سيُـذيعُهـا ... بلسـانِ كـلِّ مثـقَّـف ومـشـطّب
إنَّ الـخـلافَـةَ لم تَـبِن أسْـرَارُهـا ... إلا لِـهَـذا النَّـجـلِ أو هَـذا الأب
نُـورٌ أرَاد الـلّـهُ ألاَّ يَـجْـتـلي ... إلاَّ بـغُـرَّةِ طـيِّـبٍ عَـنْ طـيِّـبِ
[213] لَـولاهُـم لَـغَدا(1) الـوَرَى في حَـيْـرةٍ ... تَـرمي بِـهِـم مِـن غَـيْـهَـبٍ فـي غَـيْـهَـبِ
والآن قَـدْ بـان الـصَّبـاح لـنـاظِـرٍ ... وإن تـبيَّـن عـاقِـلٌ لَـم يَـرْتَـبِ

وأمر أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنـه أن يكتب الصنَّاع في سَيْفه (لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين) .

فكتب ذلك فيـه وقـال في مجلسـه الكريم للشيخ الفقيـه أبي محمـد المالقي : أخرج الى طلبة الحضر وأمـرهم أن يضمن هذا المكتـوب في بيتين من الشعر فخرج أبو محمد المالقي وقال للطلبة ذلك واستعجلهم فيه .

فقال ابنْ حربون مرتجلاً على لسان السيف : (رَمَل)

أنـا إن جُـردتُ يَـومـاً ... كـنتُ بـالنَّـصْـر قـمـينـا
لأمـيـر الـمـؤمـنـيـن ... بْـنِ أبـي الـمـؤمـنـيـن

فاستحسن أميرُ المؤمنين ذلك واحْسَن إليه وأجزل العطاء لدَيه .

= ابن خلدون : ـ التعريف بابن خلدون (نشر ابن تاويت الطنجي) صَفحة 23.

(1) كتبت غدا بالياء هكذا: غذى.

البركة العامة النافذ بها الأمر العالي أدامه الله لجميع الموحدين ، والعرب القاطنين والأجناد الأندلسيين بالحضرة والمواسط(1) [214] والثغور .

قـال الراويـة : ولما كـان البشر العـام ، واليسر التـام ، بتجديـد البيعـة الميمونة ، الرضوانية المأمونة ، على مـا تقدم الـذكر لهـا ، أمر أميـر المؤمنين رضي الله عنـه ببركـة تعمّ الناس بحضـرة مراكش إيصـالاً للعفو الـذي تقدم ، وأفضالاً بتتميم منّه الذي به أنعم ، ونفذ أمره العـزيز بمخـاطباتـه الى السادات إخوته بالبلاد العدوية والأندلسية القاصية والدانية .بالإنعام بالبركة على ما ذكـرته فعمَّ النـاس فضله ورفـدُه ، وثبت في القلوب حبُّـه وعهـده ، واستـولى بهـذا الإنعام المبارك سعده ، ونمت الجبايات والخراجات(2) حين نما كـرمه ورغـده ، وعـزمت النفـوس على الغـزو وحـرب المحـاربين في الحضـر لهم والبـدو ، واتصلت الغبطة بالبيعة الرضوانية والأمان ، وقيل للزمان : « أنت خير زمان » ، وتجـدد للعالم من حـالهم الجديـدان ، وطلب الجبـان من طـربـه الـطعن في الميدان ! وابتـدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالنظر لجزيرة الأنـدلس في بعث السيد الأسنى أبي إسحق أخيه الى قرطبة على ما أذكره .

(1) المواسط جمع موسطة : المدن التي تقع وسط البلاد.

(2) كان عبد المؤمن أول من أحدث الخراج بالمغرب، وكان ذلك سنة 555 حيث أمر بتكسير البلاد من أفريقية والمغرب بالفـراسخ والأميـال طولاً وعـرضاً ثم أسقط من التكسيـر الثلث في مقابلة الجبـال والأنهار والحـزون والطرقـات وما بقي وظف عليـه الخـراج والـزم كـل قبيلة بقسطهـا من الـزرع والورق.
القرطاس ثان ص 161 ـ الاستقصا ثان ص 124.

ذكر بعث السيد الأسنى أبي إسحاق إبراهيم بن الخليفة أمير المؤمنين [215] رضي الله عنه الى قرطبة والياً عليها عوضاً ممن كان فيها بعسكر ضخم من الموحدين أعزهم الله لحمايتها من المحاربين المجاورين لها

قال : ولما كان ما تقدَّم بشره من الخير ، اتَّفق الرأي المبارك على النظر السعيد ، والاهتبال الحميد ، الى جزيرة الأندلس بصرف عنان الغزو الى أعدائها ، على قُرْبهم وبعدهم من أرجائها ، فكان أول بعثٍ بعْثُه هذا السيد المبارك اقتداءً من أمير المؤمنين بما فعله أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] حين بعث يزيد بن أبي سفيان الى الشام في غزو الروم[2] أو بعثٍ بعث ، وجهاد منصور للمسلمين حثهم عليه وتأثت ، ثُمَّ والاه بالبعوث والعساكر كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حسب ما أذكره ، وخاطب الخليفة بهذا الرأي المتفق عليه المصفق ، بعد استخارة الله تعالى لديه ، الى أهل الأندلس .

وخصَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه الشيخ الحافظ أبا عبد الله محمد بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بالتَّعريف بجميع ما ذكرته ، ومن التنبيه للجهاد ، وبما عزم عليه من النظر والاستعداد ، ونص الرسالة المعروفة له المبشرة هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلَّم والحمد لله وحده من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم [216] الله بنَصْره ، وأمدَّه

---

(1) في المخطوط : (حتى) وهو دون ريب خطأ والصواب (حين) .

(2) لم يكد أبو بكر ينتهي من حروب الردة حتى أخذ يرسل الجيوش إلى دولتي الفرس والروم ، وكان فيمن أمرهم لغزو الروم بالشام يزيد . المسعودي ، مروج الذهب الرابع ص 186 - 187 . ابن خلدون العبر المجلد الثاني ص 898 م . . .

بمَعونتِه ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم والموحدين الذين بأغرناطة أدام الله كرامتَهم ، ووصل توفيقهم ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته : أما بعد فإنا نحمدُ اليكم الله الذي لا إله إلا هُو ، ونشكُره على الائِه ونعمه ، ونصلي على مَحمّد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضى عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله والدَّاعي الى سبيله ، ونوالي الدُّعا لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ممشي أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله . وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم آمالاً مُبَلَّغة ، وأماني في صلاح أحوالكم مهنَّأة مسوَّغة ، من حضرة مراكش حَرَسَها الله ، والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعتِه والاستعانة به ، والتوكُّل عليه والثقة بأنّه تعالى ناصرُ هذا الأمرِ العزيز ومؤيِّده ، ومعينُه ومنجده ، ومتولّيه بما يظفره بكل جاحدٍ لحقّه ، عمٍ عن نُوره ، عادل عن سبيله ، معرض عن داعيه ، لتمضي سنةُ الله في انتشار دعوته ، وامتداد شعتِه[1] وظُهور كلمته ، وإنجازِ ما وَعَدَهُ من الاستِيلاء على الأدنى والأبعدَ ، وضمِنَ له من البقاء الدائم السرمد ، وإنَّ أمْر تلكم الجزيرة مهَّدَها الله لَمِنْ آكَدِ ما توجَّه اليه نظرُنا ، وتوكل به اعتناؤنا واشتَغَلَ به فكرُنا ، لمُصاقبة الأعداء الرُّوميين والمجَسِّمين [217] لبلاد الموحّدين بها وإلحاحهم على جنباته ، واسترسالهم في سُبُل الاغترار وطرق الانهمال عمَّا يدهمهم من أمر الله تعالى الذي يأخذ فيهم لدينه بحقّ الانتصاف ، ويكيل له من إدْراك الثَّار بالكَيل الواف . وقد اتفقنا في هذه الأيام على أن يتوجه اليها أخونا أبو إسحاق إبراهيم بن سيدنا أمير المؤمنين وفَّقه الله في عسكر مبارك من الموحدين والعرب وفرهم الله ليكون بقرطبة مهَّدها الله ورجوْنا من تعاونه مع إخواته الذين بإشبيلية حرسها الله وتعاضدهم جميعاً ، وتوازرهم على الجهاد ، وحماية البلاد ، والنظر في المصالح ، وكافَّة ما وصّيناهم به في هذه الأغراض ، وحماية البلاد ، والنظر في المصالح ، وكافَّة ما وصّيناهم به في هذه الأغراض ، أن تظهر عليهم بركةُ سيدنا أمير المؤمنين

---

(1) كذا في المخطوط بالتاء المثناة ولعلَّ الأصل شعبته .

وآثاره، وما أخذنا عليهم من عُهود التقبُّل لها والاقتداء بها، وأن ينفع الله بهم، ويعرف عن اجتماعهم، وأن يسعدهم ويسعد بهم، وعلى ذلك فالنظر مستتِب والغوثُ مطَّرد، وهذه كلّها مقدماتٌ بين يدي ما ينوي من الغزو الأعَم، والجهاد الأتم، الذي يمحق الله به الباطل، ويعفي أثره ويعدم عينه، على ما وعد أنه لا يُخلف الميعاد، فاشكروا الله على ذلك، واستبشروا وبشّروا إخوانكم بجميع جهاتكم وأنظاركم بإقبال هذه الخبر، وتوالي النَّظر، وأنِّسوا به القلوب وسكّنوا به النفوس وثبِّتوا به الأقدام، وأجدّوا في الجهات بنياتٍ خالصة، [218] وعزماتٍ صادقة، وكونوا على أتمّ التعاون، وأوفى التَّعاضد، واستشعروا الإقبال، وصلاح الأحوال، إن شاء الله . وقد خاطبنا الطلبة الذين بإشبيلية أن يدفعوا للموحدين الذين بأغرناطة من البركة مثل ما أخذه أهل قُرطبة، وكذلك خاطبنا كم أن يستمِر لكم النظر في الآلات والأسلِحة التي تحتاجون للقَصَبَة حَماها الله، فاعلموا ذلك، والله تعالى وليُّ عونكم بمِنِّه والسَّلام العَميم الكريم عليكم ورحمة الله. كتب في الثاني والعشرين من جمادى الآخر عام ثلاثة وستين وخمس مائة .

(اشتباك جيش الموحدين بخيل جرانده بين وادي آش وغرناطة)

وفي تاريخ وصول هذه الرسالة الكريمة إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن أبي ابراهيم خرجت من مدينة وادي آش(1) جملة ذميمة من خيل جرنده(2) من المحاربين وأصحابهم النصارى الكافرين - أهلكهم الله - مختلسين مختطفين الفساد في أنظار الموحدين، فأسْروا ليلَهم ونهارَهم حتى

(1) راجع تعليق رقم 2 ص 220.

(2) جرانده: (Giraldo) يرسمه ابن صاحب الصلاة هنا بدون ألف بعد الراء، ويظهر أنه هو نفس جرانده الجليقي الذي ينعته ابن صاحب الصلاة أحياناً بالكلب والمعروف تحت اسم (Giralda Sem pavor). هذا وعندما كان الأستاذ ويسي ينقل هنا ما ورد عن ابن صاحب الصلاة أعرض نهائياً عن ذكر (جرانده) وعوض العبارة على النحو التالي: من المسيحيين الذين كانوا في خدمة ابن مردنيش بوادي آش. . .) المن بالإمامة. Huici P. 232 - 233.

وصلوا نظر مدينة رندة - كلأها الله - فغنِموا بعضَه، واكتسحوا سائمتَه وماشيته من الغنم والبقر والدواب والمتاع، وعلم الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بذلك بأغرناطة، فحزم في أمرهم وفي حسْم شرِّهم، وبعث في اتباعهم ودفاعهم جملةً مباركة من عسكر أغرناطة من الموحدين والجنْد الأندلسيين مع الرُّماة والرجَّالة وفَّرهم الله [219] فالتقوا بالأشقياء وهم منصرفون بالغنائم بين نظِر وادي آش وبين نظِر أغرناطة، فحين عاينوا الموحدين - أنجدهم الله - آووا إلى جبل شاهق، فحمل الموحدون - أنجدهم الله - على الكافرين حملة صادقة طاردُوهم فيها من أول صلاة الظهر، إلى أن هبَّت عليهم ريح النصر خلال وقت العصر، وولى الكافرون أدْبارهم، وهزموهم في أعلى الجبل المذكور وأزعجوهم فيه حتى تردّوا من حافاتِه، وتكسَّرت أعضائهم وتمزَّقت أجسامهم، واستولى الموحدون - وفَّرهم الله - عليهم بالقَتْل والأسر والسبي وأنقذوا الغَنائم، وحازوا أسلابهم ودوَّابهم، وسبوا من أعلاج النصارى ثلاثة وخمسين علجاً استاقوهم إلى غرناطة مع جملة الغنائم، فغزاهم الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بنفسه مع أصحابه المختصين به من الحفاظ، وضربوا رقابهم، وخمَّس الشيخ أسلابهم، وكان فتحاً جسيماً للموحدين، وبرحاً عظيماً مليماً على الكافرين، انبسطت به آمال أغرناطة في جهاتِهم، واتَّسعت الأحوال بالأمنة في جنباتهم. وعرَّف الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بهذا الفتح حضرة أمير المؤمنين رضي الله عنه فجاوبه بما هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده مِن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم [220] الله بنَصْرِه، وأمدهم بمعونته، إلى الطلبة الذين باغرناطة، أكرمهم الله بتقواه، سلامٌ عليكم ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه. أما بعدُ فإنا نحمدُ إليكم الله الذي لا إلاه إلا هو، ونشكُره على آلائه ونعمه، ونصلِّي على محمد نبيِّه المصطفَى ورسُوله. ونسألُه الرضى عنِ الإمام المعصُوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى والداعي إلى سبيله، ونوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفتِه الإمام أمير المؤمنين، مُمَشِّي أمره

العزيز إلى غاية تتميمه وتكْميله، وإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه من حضْرةِ مراكش حرسَها الله، والذي نُوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعتِه والإستعانةُ به، والتوكُّل علَيْه وإن تشكروه على ما يوالي بِهِ هذَا الأمرَ العزيز وأهْلَه من مواهبِ النَّصْر وموانحِ التأييد التي يعلي بها كَعْبته، ويظهر به حزْبه، إمضاءً لسنته، وطرداً لعادته، والحمدِ لله وقد وصلنا كتابُكم من أغرناطة حَماها الله بما سنّاه الله في الأعداء الكفرة الذين كانوا بوادي آش - فتحها الله -، من الفتح الذي عرَّفهم به قدْرَ اغتِرارهم ومكان جهْلِهم، وموضِع الإملاء لهم، بما كانوا اعتادوه من التسحُّب على أطراف تلكُم الجهَات بالاختِلاس والاختطاف على ما ذكرتُم فيسَّر الله لكُمْ من أسْبَاب العَوْن عليهِمْ، ومكيفات الإنْجَادِ في الأخْذِ بالثأرِ منْهُم ما شرحتُموه في كتابِكم، وبيَّنْتُموهُ [221] بإعلامكم ممّا وقفْنا مِنه على مَا سرَّ موقعه، وحسُن مطلعُه، وجَرَى عَلَى مَعْلُوم هذا الأمرِ فيْ نُصْرته وتأييدِهِ، والصّنْع الجميل له، وإخزاءِ أعدائه، وادّحار مُعانديه، والَّذي منح الله الموحِّدين في هذه الغزوة المباركة خيرٌ كثِير، وأثَرٌ جَمِيل، وله في تمْهيد تلكم الجهات وتأنيس أهْلها وبسْطِ آمالهم وتسكين نفوسِهم، ومثابةٍ من فَتِّ أعضاد الكَفَرة وتوهين أمْرِهم، وإشعارهم الأدْبَار في أحْوَالهم، والارتكاس في حَويلهم مواقعُ ظاهرةُ الآثار، بيِّنَةُ المنافع، مَعَ ما خيَّر الله في تلك الحالِ من الغَنَائم التي اغتصبُوها أهلَها، واقتطعُوها من أربابِها، فأحَقَّ الله الحقَّ وأبطل الباطِل ولو كره المُجْرِمُون، فاشكروا الله تعالى على تَوْفيقه الذِي يمَّن قصدَكم، وأنْهَض عزمكُم، وسدَّد رأيكم، وقابِلُوا ذلك بما يقْتَضِي له المزيدَ من فَضْلِه والمضاعف من إحْسانِه. وبشّرُوا المُوَحِّدين والغُزَاة بنعْمَة اللهِ عليهم في الظُّهُور على أعدائِهم، والنَّصْر لدعْوتهم، وأن لهم عند الله مع هذِهِ العطية الثواب المدَّخر، والأجر الأجْزَل الأوفر، وليَسْتَدِيموا ذلِك بالأعمال الصَّالحة، والقُلُوب الطَّاهِرة، والأحْوَال المُسْتقيمة، والله وليُّ العَوْن على ما يقرِّبُ مِنْه ويزلف عبدَه بِمَنِّه، والسلامُ الكريم العميم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وكتب في الثالث من شهْر رمضان المعظم سنة ثلاثة وستين وخمس [222] مائة.

وجاوَبَه السيدُ الأعلى أبو حفص أيضاً في التَّاريخ المذكور بهذا:

بسْمِ الله الرحمنِ الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم من عُمَر بن أمير المؤمنين إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم أدام الله كرامته بتَقْواه. سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، أما بعد حمْدِ الله تَعَالى، والصلاةِ على محمَّدٍ عبده ورسوله المصطَفَى، والرِّضا عن الإمَام المعصوم، المهْدي المعلوم، المرتضى، والدّعاء لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الأكرم الأهْدَى، وبمثله لأمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النَّصر الأحْفَل الأحْفَى، فكتبناه إليكم - أدام الله توفيقكم - من حَضْرةِ مراكش - حرسها الله - ولا جديد إلا نعَمُ الله المتوالية، وآلاؤه الرائحة والغادِية، وتعرف بركَةَ هَذَا الأمْر العزيز في كلِّ ظَعَنٍ وإقامة، على أتم الأحوال المستدامَة، والحمدُ لله، وقد وصلَنا كتابُكم المبرور، مضمناً من البشائر بجهادِكُم في الكفرة، واجْتِهادِكم، ما أجرى الله به عادةَ هذا الأمْرِ في تيسُّر أسْبابها، وانفتاح أبْوابها، وإلمامها على الدَّوام وانتيابِها، واستوضحت من أعلامكم جلية، وأتَتْ على وفق الإرادة حميدةً مرضية، فاشكُروا الله على ما سنّاه لكم مِنْها [223] ومَنَحكم من أجْرِ التَّعريف بها، وامضُوا على ما أنتم بسَبِيلِهِ من الاجتهادِ في أمُوركم، والعُكُوفِ على أشْغَالكم، ووالُوا الإعلام بما يتجَدَّد عِنْدَكُم إنْ شَاء الله. والله وليُّ عونكم والسَّلام الكريمُ العَمِيم عليكم ورحمةُ الله وبركَاتُهُ.

كُتِبَ في الثَّالث من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وستين وخمس مائة.

(تشغيب أهل جبل تاسررت)

وفي هذه السنة شغب قوم من البرابر المرتدين في جهة جبل تاسررت[1] وحين صحَّ خبرُهم بتشغيبهم وارتدادِهم، وعزمهم على عِنَادِهم، عسكر إليهم

(1) لم نهتد لمعرفة موقع جبل تاسررت (Tasart) بالضبط، فقد اختفى من النص كل دليل - باستثناء كلمة «البرابر» - قد يُرْشِد، ولم نعرف أكثر من أن هناك جهة تحمل نفس الاسم تقريباً (Tasrirt) كانت تمرَّدت وبعث لها بالقائد وسنار وقد فتحها المهدي سنة 521.
البيذق: أخبار المهدي ص 117 - 118 - ابن عذاري 64. Huici 76 - 614.

السيد الأعلى أبو حفص - رضي الله عنه - بجَمْعٍ وافرٍ من الموحدين - أعزَّهم الله - فغزاهم وأجْلاهم عن ذلك الجبل، وقتلهم فيه شرَّ مقتل، وأحْدَث فيهم حدث الزَّمان المعضل، وطعنهم فيه طعْنَة البطل الشجاع الحُوَّل، واستأصلهم سبياً ونفياً، ولم يدَع لهم في حيّهم حَيّاً، وانصرف على عادته التي عوَّده الله من النصر والظفر، والسرور ونيل الوطر، فقال أبو عمر بن حَرْبُون يمدَحُه ويهنئه بغزْوته، ونَيْلِ بغْيته: (متقارب).

بيُمنِكُم أنْجحَ المطلبُ … وأعطى مقادته المصعَبُ(1)
[224] وأشْرقتِ الأرض عن نُوركُم … فلم يَبْقَ في أُفُقٍ غَيْهَبُ
فلم تَدَعُوا غايةً تُنتَجَى … ولم تتركُوا شاغِباً يَشْغَبُ
فحسب عزائِمِكم حسبُها … فقد ذهَبَتْ حَيْثُ لا مَذْهَبُ
أطاعَك دهْرُك في العالَمِين … فيَرْضَى مَتَى شِئْتَ أو يَغْضَبُ
فقِدْحُكم فَائِزٌ بالمُنَى … وقِدْحُ أعَادِيكم الأخْيَبُ(2)
ومَاذا تُؤمِّلُ هذِي الرعَاع … وأنَّى لَهَا عنكُمُ مَهْرَب؟
ستَبْرأ إليك(3) مِنْهَا الشّعاب … ويُسْلِمُها البازِلُ الأصْهَبُ
وكيف يفوتُكُمُ هَارِبٌ.... ولله مَطْلُوبُكُم يطلُب
لقَدْ ركبُوا مركبَ الجَاهِلين … والجَهْلُ من شَرِّ ما يُرْكَب
أمَا عَلموا أنَّها طَاعَةٌ … بِهَا يُعْمَرُ العمر أو يُخْرَبُ
ولو أنَّهم وُفِّقُوا للرَّشاد … لأغضَيْتَ عنْ بَعْضِ ما اسْتَوْجَبُوا
ولم يُحْرَمُوا من رِضَاكُم ذُنُو … باً بِهَا يُرْحَضُ الدَّرن المُذْنِب

(1) اقتصر ابن عذاري على ايراد ستة أبيات منها، ص 64.

(2) يشير البيت لقداح الميسر الفائزة وقداحه العاطلة، ويعتبر الحديث عن الميسر وتقاليده وعاداته من أمتع المواضيع وأطرفها، فإن الأسهم الرابحة: الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى... أمَّا القداح الخائبة: المنيح والسَّفيح والوغد.

التازي: أداب لامية العرب (طبعة الرباط).

(3) يظهر أن الأصل تقديم لفظ (منها) على كلمة (إليك): ستبرأ منها إليك الشعاب، ليستقيم وزن البيت.

تَرَكْتُم دِيَارَهُم بَلْقَعاً … فَتَنْدُبُ مَنْ جَاءَها يَنْدُب
ولا غَرْوَ أنْ صَالَ لَيْثُ الشَّرَى … فَرَاغَ مخَافَتَه الثَّعْلَبُ....
رَميتَ بِهَا الهَضَباتِ العُلَى … فخَافَكَ في أوْجِهِ الكَوْكَبُ
فمزَّقْتُم شَمْلَهُم في البِلَادِ … فقلهُمُ جَمَلٌ أجْرَب(1)
وقد ركَدَتْ نفحاتُ الجَنُوب … غَدَاةَ أتَتْ نَحْوَهَا تَجْنُبُ
جِيَادٌ لو اختَلَطَتْ بالظِّبَاء … لم يُدْرَ أيُّهُمَا الرَّبْرَبُ
جُيُوشٌ تسِيرُ وقُدَّامَهَا … جُيُوشٌ مِنَ الرُّعْبِ لا تحسَبُ
[225] طلائعُها المَلا الأكْرَمُون … فلم يخْلُ مِنْ مَلَكٍ مَرْقَبُ
إذا أخذتْ للوغى زَيَّها … ولاحَ لديكَ بها المَذْهَبُ
رأيتَ سبائِبَ رَوْض الرُّبا … يغصُّ بها الأفيحُ السَّبْسَبُ
تودُّ الكواكِبُ لوْ أنَّها … من بعْض جُنُودِهم مَوْكِبُ
ألستَ الذي بمقاماتِهِ … يَبْأى على المَشرِقِ المَغربُ!!
سَليلُ الخلافة صِنْوُ الإمام … وسيفُهما المِقْصلُ المِقضَبُ
فيهنِي الخلافةُ أن أصْبَحَتْ … بصارِمِ سيفِكُم تَضْرِبُ
حميتُم حِماها فأنَّى تُرام … ومن دونها البَاسِلُ الأغْلَبُ
ومن سَعْدِها أنَّها مِنْكُمُ … أُتيحَ لها الحُوَّلُ القُلَّبُ
ألَمْ تَرَ قَيْصَرَ في مُلكِهِ … إلى السِّلْمِ من بأسِكُم يَهرَبُ
ولمَّا تنله سِوى عضَّةٍ … لَهَا بين أكتافِهِ مِخْلَبُ
لَقَدْ عمَّت الأرْضَ الأؤكُم … فكلُّ جديدٍ بكُم مُخْصِبُ
فلو أطلقتْ دعوَةَ المُدَّعي … إذاً لادَّعاكَ الحَيا الصَّيِّبُ
رضاكَ أبا حفص المُرتَضى … فإنَّ بهِ الدَّهْرَ يسْتَعْتِبُ
تحير في كُنهِكَ الألْمَعِيُّ … وقصَّر في مدْحِكَ المُسْهِبُ
فلا زلتَ يرجُوك من يَرْتَجي … ويرهب بأسَك من يَرْهَبُ
أمولاي أخْرَسَني فضْلُكم … فما لي لسانٌ بِهِ أعْرِبُ

(1) ابن عذاري ص 64: كأنهم جمل أجرب.

ولـو أنـجـدتـنـيَ لـم تـشْـفـنـي   مـعَـدُّ بن عـدنـان أو يَـعْـربُ![1]
فمـا لي سـوى حـزبـكم شيعـةٌ   ولا غـيـر مـشعـبِكُم مَـشْـعَـبُ
[226] وحـسبي بـه شَـرَفـاً أَنَّني   ولائِـي إلى مـجـدِكُم يُـنـسَـبُ
أمـنـتُ بـكُـم كـلَّ مـا أتَّـقـي   ونِـلتُ بـكُـم فـوْقَ مـا أرْغَـبُ

ووصـل إلى أمير المؤمنين أبي يعقـوب بن أميـر المؤمنين - رضي الله عنهم - فتحُ بوقعةٍ كانت على المخالفين المرتدين بالمغرب فأمر أن يبتدىء الشعراء فيها بالحمد لله على طريق الكتابة.

فقال أبو عمر بن حربون في ذلك: (بسيط)

الحمـدُ لله مُـدْني شـاسـع الأمَـلِ   وناظِم الشَّمل في سِلكٍ من الجَذَل[2]
ومَن أتـاحَ لنصـرِ الـدِّين طـائفـةً   تضمَّنت رِيّ[3] هيم البِيضِ والأسَل
تضاءلَ الضَّيْغَمُ العـادي لصَـوْلتهم   حتى اغتدى يتمشَّى مشيةَ الـوَعِل
ثم الصَّلاة مـعَ التَّسْليم يشفـعُهـا   على الرَّسول الذي اسْتوفى مَدى الرُّسل
على الـذي تمَّمَتْ أحكـام ملَّتِـه   مكارمـاً لم تكنْ في سَـالِفِ المِلَل
ومَن رضـاه على المـهـديّ أحفَلُه   كمـا هَـدَى بسَنـاه أرشـدَ السُّبُـل
لمـا اجتبـاه لنصْـر الـدِّين أيَّـدَهُ   بعصمـةٍ أمَّنتـه مـدحضَ الـزَّلَـل
ثمَّ الـدُّعـاء لمـولانـا وسيِّـدِنـا   خليفـة الله عبْـد المـؤمن بـن عَلي
هـوَ الإمام الـذي كـادَتْ فضـائِلُه   تجـلُّ عن رُتْبَـة التَّشبيـه والمَثَـل
هـوَ الجوادُ الـذي جاءَت مـواهبُهُ   بكـلِّ ما لم يقَعْ في خـاطِر الأمل
[227] هُـمُ جـدَّدُوا مـن رُسُـوم الـدِّيـن دَارِسَـه   كـان الـوَرَى وقَـفُـوا مِـنْـهَـا عـلـى طَـلَلِ

(1) معد بن عدنان رأس قبائل العرب فمن (معد) كان نزار والد مضر وجدّ قيس عيلان أما عن يعرب فراجع التعليق رقم 1 ص 73 . هذا وتذكّرنا هذه المبالغات في اداعاءات المتنبي وإضرابه، ولذلك فقد كتبت طرة يسرة هذين البيتين تقول: «تجاسُر عظيم».
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب ثالث 1121 - 1266.
(2) اقتصر ابن عذاري على أحد عشر بيتاً من هذه اللاَّمية على عادته في الاختصار.
(3) أي أن هذه الطائفة عهد إليها بارواء ظمأ البيض والاسل.

وجـرِّدوا لـلأعـادِي كـلَّ عَـادِيـةٍ   يُمْسِي ويُصْبح منْها الدَّهْرُ في شُغُلِ
من معْشَرٍ كلَّما انتاشُوا عَـواملَهم   تجرَّعُوا الصَّابَ أو أمضوا إلى العَمَل
ولـلإمـامِ أبي يعقـوبٍ مشبِهِهم   ومن تقيُّلِهم في القَـوْلِ والعَمَـلِ
مَـلكٌ تـظَلُّ ملوكُ الأرْضِ تَـتْبَعُـه   مُسْتَبْشِـرِين بأن عُـدُّوا مِنَ الخَـوَل
فيسحب النَّاسُ مِن مَعروفِـه حُلَلاً   ومـا لَـه غيـرُ تَقْـوَى الله من حُلَلِ
إذا دنـتْ دَارُهـم فـاعـطفْ أزِمَّـتَـهَـا   واحـطُطْ رِحَـالَـك فِـيهَـا مُـنْـتَـهَى الـرحـل
وانـزِلْ لَـدَى سـاحـةٍ ريَّـا مـبـارَكَـةٍ   واشـكُـر أيـاديَ أيْـدِي الـخَـيْـل والإبـل
قـد يـمَّـمَـتْكُـم وحَـادِي الـشَّـوْقِ يـحـفِـزُهَـا   والـرَّمْـلُ يـشْكُـو الـذِي يَـشْكُـو من الـرِعَـل
وإن عَـلَـتْ سَـنَـداً أوْرَتْ بِـه زَنَـدا   تـلقَـى الـقُـلُـوب بـمـا فِـيـهـا مِـن الـشُّـعَـل
لم تقـرب الـدارُ إلا أرزَمَتْ طَـربـاً   قـربُ المَـواردِ يُـذْكي وقـدةَ الغُلل!
لقَدْ براهـا السُّرى حتى لـو انتسبَتْ   لمـا عـدتْ منتهَى الخطيّـةِ الـذُّبُـل
إن أسفر الصُّبْحُ مِنْ تِلقـائكم سَفَرَت   رسـل الصبابـة بَيْن القلب والمُقَل
وكـلَّمـا هـبَّـتِ الأرْواح وانـيـةً   سنَّت لِهَـذِي المَـطايـا سنَّة العجـل
يـا خَيْر من يـدعي الأبطالُ بـاسْمِهم   والخَيْـل من مستطيـر النَّقْع في ظلل
ومَن لَهُم راحـةٌ سَحَّـاءُ مُـذْ خُلِقتْ   لم يحْفل النَّاسُ يـا لو كَّافَةِ الهطل
ومَن أبَى الله أن تحصى مكـارِمُـهُمْ   إلَّا إذَا تـرك التفْصِيـل للجُمَـل
لَـوْ أنَّ لـيلهـم ممـا يُـجَـادُ بِـهِ   تقسَّمتْـه ظِبـاء القَفْـر عن كَحَـلِ
إنـا قـطعْنـا إليكُم كـلَّ مـرحلَةٍ   تَضِـجُّ منهْـا ذَوَاتُ الأذرع الفُتُـل
[228] حـتَّـى وردْنَـا وُرُودَ الـحَـائِـمـاتِ وفِـي   لـقـائِـكـم مَـا يـفِـي بـالـعَـلِّ والـنَّـهَـل
فـاسألْ بِهَـا جَبَل الفتْـح المُبِين فقـد   أهْـدَى تحيتَـه منكُم إلى جَبَـل
فـمـا تعـذَّر من أوطـاركـم وطَـرٌ   ولا تبقَّت لكـم حَـوْجَـاء لم تُـنَـل

ولا تفتَّقَ فِي البرَّيْنِ مِنْ خَلَلٍ   إلَّا وقَدْ رتَقتْه ربَّة الخلَل
بشائرٌ عمَّتِ الآفاقِ قاطِبَة   يدْعُو لَهَا هُبَلٌ[1] بالوَيْل والهَبَل
لا شَكَّ في أنَّ أَمْر الله أمرُكُم   مؤلَّفٌ بَيْن بِيضِ الهِنْدِ والقُلَل
أمرٌ تظَلُّ صُروفُ الدَّهْرِ تَخْدُمُه
مَهْمَا يُشر نحوَها بالأمْر تَمْتَثِل
لو نازعتْه سُيُوفُ الهِندِ ما قطعتْ
ولو عصَتْهُ رِماحُ الخَط[2] لم تُطل
هَذِي فُتوحُكم بالغَرْب قد طَلَعَتْ
عَلَى الأنَامِ طُلُوعَ الشَّمْسِ فِي الحَمَل[3]
وقائعُ حدقت بها القَنَى مُقَلاً   بلَا جُفُونٍ وأَجفاناً بلا مُقَل
أنَّى عَمُوا عن سَبِيل الرُّشْدِ ويحَهُمُ
يا ضُلَّ مَن ضَلَّ في مَهْدِيةِ الدُّولِ
سَرَوْا بعَاقِبةِ الإنعام عاقبةً   تَنُوسهُم بيْن سَهْلِ الأرض والجَبَل
فاصْبَحُوا عبرةً تَبْدُو لمعتبِرٍ   مجدَّلِينَ بِمَا رَامُوه من جَدَلِ
لَمَّا أتَتْهُم جنودُ اللهِ أسْلَمَهُم
شَيْطانُهم، وانْثَنَى يَثْنِي على الحِيَل

(1) هبل: من أبرز الأصنام التي كانت في جوف الكعبة، وقد كان أمامه سبعة من القداح يستقسمون بها أمَامه! تاريخ الإسلام ص 69 - 70 - 71.

(2) الخط: انظر التعليق رقم 3 صفحة 101.

(3) أحد البروج الاثني عشر وهو من البروج الربيعية وللشَّمس في إبان الربيع بهاء كما لا يخفى لذلك نرى الشاعر يشبه بها فتوح الخليفة، فإذا حلت الشمس فيه حصَل الاعتدال الربيعي كما قال أبو نواس:

أما ترى الشمس فيه حلَّت الحَمَلا   وقام وزن الزمان واعتدلا

وهو أشرف البروج كما قال بعضهم:

يا أوحد الناس قد شيدت واحدة   فحُلَّ فيها حلول الشمس في الحمل

وقال الطغرائي:

لو كان في شرف المأوى بلوغ منى   لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل!

لَحَاهُم اللهُ من بُلْهٍ زَعانِفَةٍ
رامُوا كفاحَ البُزاةِ الشُّهْب بالحَجَل!
ومن يحِدْ عن سَبِيل المؤمنين يُحَذ   بعدْلِ كلِّ أصَمِّ الكَعْبِ معتدِلِ
لم يَبْقَ مِن بَعْدِهَا إلا لقاؤُكُمُ   ثُمَّ الذِي شاءتِ الآمَالُ من نِحَلِ
ودُونَكُم قَبْل هَذَا من تحيَّتِنَا
ما يفْضَح الرَّوض عَبَّ العارِضِ الهَطِل
لا زَالَ أَمركم حتْماً وحضْرتُكُم   معْمورةَ الرّكْن بالإقْبَال والقُبُل

[229] قال الفقيهُ الخطيب أبو محمد المالقي رحمه الله: استحسن الأمر - أدامه الله - لأبي عمر هذه القصيدة حين صاغ فيها المذهب المراد، وقصد فيها الاقتصاد، وسبق أصحابه الشعراء القصاد، وتقرب للأمر العزيز - أدامه الله - بأغراضِهِ النبيلة فعلى ذكره وشاد.

(محاصرة الجيش الموحدي لحصن طبيرة)

قال المؤلف: وفي هذه السنة لازم الموحدون أعزهم الله حصن طبيرة[1] بالحصار، وللغادر الثائر فيها عبد الله بن عُبَيْد الله[2] بالضيقة عليها والإسار، برّاً وبحراً، وسكنوا في حصن قسطلة[3] بعسكرهم المؤيّد يضربون عليها نهاراً

(1) طبيرة (Tavira) تقع على شاطىء البحر المتوسط في الشرق الجنوبي لمدينة شلب وقد نسب إليها جماعة من الأيمة، منهم أبو محمد عبد العزيز بن الحسين الطبيري المتوفى سنة 617، هذا وطبيرة غير طلبيرة (Talavera) التي تقع في الشمال الغربي لطليطلة، وقد تردَّد الحميري في الفرق بينهما.
المعجب (القاهرة) ص 374 الروض المعطار ص 123 - 127 - 128 - المعجم جزء 4 ص 21.

(2) لم نقف على ذكر لعبد الله بن عبيد الله هذا الذي ثار منذ سنة 546 ولعله كان ضمن الذين ذكروا في كتاب «ثورة المريدين» بيد أننا لم نجد صداه في الحلة السيراء التي نقلت عن هذا الكتاب. .
Huici T II page 235.

(3) قسطلة (Cacella) تقع في غرب الأندلس في الشمال الشرقي من طبيرة على مقربة منها على شاطىء المحيط الأطلسي. هذا هو القصد هنا، وهناك مواضع أخرى من الأندلس تحمل اسم قسطلة.
الروض المعطار صفحة 160: الحلل السندسية أول 86. ديوان ابن دراج القسطلي: نشر محمود علي مكي صفحة 30 - 31 - 32.